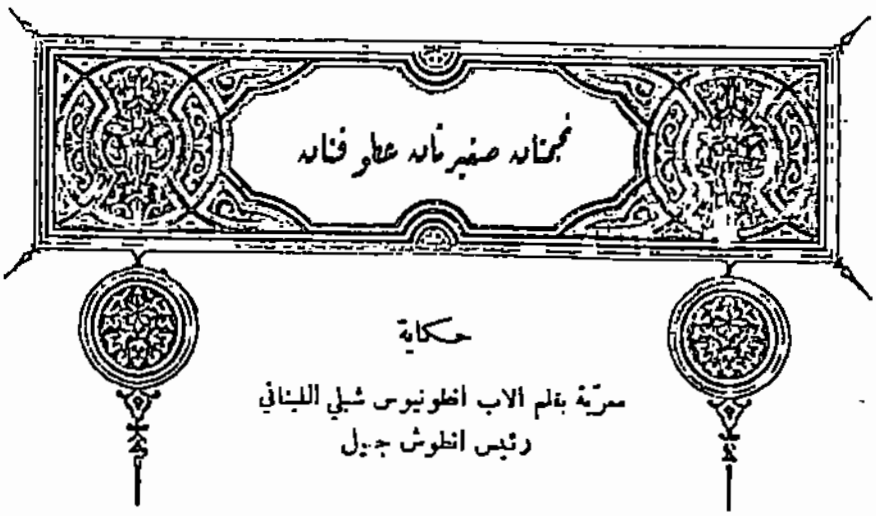

حكاية

معرّبة بقلم الاب انطونيوس شبلي اللبناني
رئيس انطوش جبيل

ظهرت يوماً نجمتان صغيرتان كأنهما اعجوبة ، فأنارتا الجوَّ الفسيح بلمعانهما الباهر . فرآهما الله كذلك ، فاختصَّهما بحبه ، وسألهما رغبة يتمُّها لهما . فما اشتهيتا شيئاً ، بل اكتفيتا بظهورهما قبل كلّ النجوم ، كلّ ليلةٍ ، تنيران مكاناً معيَّناً كقنديلين كهربائيين معلَّقين على باب الفردوس الذي يقفلهُ القديس بطرس كلّ مساء .

ليس لالوف النجوم محل وقوف ، ولا وظيفةٌ خاصَّة . أمَّا النجمتان الصغيرتان فطريق السماء العام مسيرهما ، ولهما وقوفٌ خاص فوق بيتٍ صغير ، في وسط حقل تحيط به غابةٌ واسعة الاطراف ، وترتفع حولهُ اشجارُ الصنوبر الكثيفة ، تمرُّ الريحُ في أغصانها فيبدو للسامع من حركتها كأنَّ أسراب طير تشقُّ الفضاء ، او امواج بحرٍ تتكسر على رمال الشواطئ .

رَقَدتْ الميلةُ ، إلَّا ابنة صغيرة جميلة جَلَست على مقعدٍ جنب البيت تُصغي الى النسيم يداعب ذوائبها الشقراء ويحمل اليها حكايات القرى القريبة . وخرير ماء الساقية الجاري على كثبٍ منها يُنشيءُ في نفسها شتَّى التأثرات . فتاةٌ صغيرة صَموتة ، شاحبة الوجه ، يحبُّها جميع الناس كلّ وقت ، وتحيِّيها العصافيرُ كلّ صباح ، ويلاطفها النسيم بنسماته العاطرة ، وتهدي اليها الزهور أطيب أطيابها ، وتروي لها الساقية اخبار الجبل العالي يكلّلُ رأسهُ بياضُ الثلج ، وروايات الماشية تشرب من غدرانها ، واحاديث الرعاة يتفنّون عن جانبيها . وهي

جالسةٌ الساعات الطوال تأنسُ بذلك كلِّه ويطفحُ وجهها بشراً.

عمياء تلذُّها المناظر الفاتنة وهي لا تراها !

روزي فرحةٌ بالرغم من مصابها الأليم . لانَّ ابويها تحوَّطاها بكل عنايةٍ وشفقةٍ وحنان ، حتى كأنَّ البيت كلَّهُ سرورٌ حولها ، وحدائق الغابة الغنَّاء مسرحٌ لافكارها بحسب مشتهاها ، تحمل الى الظباء والغزلان قوتاً كل مساء.

كان لروزي أخٌ أصغر منها سنًّا يدرسُ علم الفلك في إحدى المُدُن ، باذلًا ما في وسعه لينال قصبَ السبق في فنِّه ، وطالما طالع السماء جالساً ليالي الشتاء الطويلة بقرب النافذة ، مراقباً النجوم بعد ان يُشبعهُ استاذهُ شروحاً عنها.

وكان كلَّ سنةٍ يحضرُ الى البيت ليحتفل بعيد الميلاد مع عيلته فيقصُّ عليها كلَّ ما يتعلَّق بدرسه وبجمال تلك المدينة العظيمة ، غير انهُ كان يتكلَّم على الأخصّ ، وقد أخذ منهُ الانذهال ، عن الكواكب المحبوبة وجمال الفلك العجيب.

وكانت روزي الصغيرة مصغيةً كلَّ الاصغاء كأنها ناظرةٌ اليه بعينيها العمياوين النجلاوين الواسعتين . ومن قوله لها : ان النجوم تبان في المرقب كأنَّها عوالم . وقد رأوا في القمر جبالًا ووهاداً ، إلَّا انهم رأوا أنَّ الحياة فيه غير مستطاعة لشدَّة برودة الطقس.

عندئذٍ أحسَّت تلك الابنةُ الصغيرة بشوق عظيم الى مرأى ما قد سمعتْ عنه الحديث . فكانت تخرج من البيت خفية ، والطبيعة ساكنة ، وترفع عينين ملئهما الدموع الى حيث كانت تتصوَّر أنَّ الجوَّ والنجم فيه يلمعُ ، وتهتف من أعماق قلبها :

« كم يكون شكري لك ، يا ابي السماوي ، مضاعفاً اذا قوَّيتني على ان أرى ، ولو مرَّة واحدة ، النجوم المحبوبة ، والقبَّة السماوية ، والعالم الفخم الجميل ! »

سمعتْ النجمتان الصغيرتان هذا الهتاف ، فحملهما عطفُهما على الذهاب الى الله وكلَّمتاه بشأن الابنة الصغيرة وسألتاه رغبتهما في إبصارها . فسمع صلاة

روزي ، وشاء بجودته غير المحدودة ان يستجيب طلبتها فقال : « اني اقضي لكما رغبتكما على شريطة ان تهبطا الارضَ معي ، ولكن يجب ان تعلما انكما اذا بلغتاها لا تصعدان منها في الحال ولا تضيئان من بعدُ في السماء ما لم أَدعُ اليَّ تلك الفتاة الصغيرة . »

فارتضتْ النجمتان بشرط الله عليهما .

***

وبينما المساء بارد ، والثلج متساقط ، وتلك الليلة جالسة لطعام العشاء ، وروزي مصغية الى صفير الريح ، واغصان الاشجار تتقصّف من ثقل الثلوج ، وبيت الفلّاح ملتحف بثوبه الابيض ، اذ بالباب يُقرع . فاسرع الرجل ففتح ، واذا بشيخ تدلّى الثلجُ بلحيته جليداً يرتدي أخلاق ثياب لا تقوى على ستر اعضائه ، وهو يرقصُ من البرد . فطلب ان يؤاوه تلك الليلة ، مدّعياً أنّهُ ضلّ الطريق . وسألهم بعض ما كل يسدُّ به جوعهُ . فامتلأَ قلب الفلّاح وامرأتهُ شفقة عليه ، وهما من ذوي الفضل والتقى . وقامت المرأة فاعدّت لهُ مأكلاً وافياً وسريراً دافئاً . وروزي كانت كأنها اصغاء الى احاديث الشيخ صاحب الصوت العذب الرقيق ، فبان لها انهُ ذو سفر طويل ، فرقّ قلبُها لهُ وشفقتْ عليه . وقد ادرك هو ذلك منها فعطف عليها وضمّها بحبٍ بليغ الى صدره ، ولم تعلم الدافع الى ذلك . ثمَّ لبث طويلاً يتأمّل في عينيها المنطفئتين وكأنَّ ابتسامة الهيّة تُنير وجههُ .

تعشّى الشيخ ودفئَ ، وذهب كلٌ الى مرقده ، ومكثت الفتاة تُفكّر بشأن الرجل غير العاديّ ، وقد شعرت في قربهِ بعواطف تقوى وعبادة لم تكن منها الّا في المعبد . ولمّا اصبحوا ، وهمَّ الضيفُ بالانصراف ، طلب اليه اهل البيت ان يبقى عندهم ريثما تخفُّ وطأةُ الثلج ، فرضي . وعَلِق به قلب الجميع ، ولاسيما روزي

أقام عندهم أياماً محفوفاً باسباب الراحة . ثمَّ قام ليسافر وقال :

« لقد خدمتموني خدمة كبيرة وحفلتموني جميلاً عظيماً . وآذن وقتُ سفري . واني لمستعدٌ قبل وداعي لكم ان اكافئَ صنيعكم »

قال هذا وجذب اليه روزي فأجلسها على ركبتيه ، ومسّ بلطفه عينيها ، فوضع فيها النجمتين الصغيرتين . فصرخت الفتاة :

« ابي ! أمي ! لقد ابصرتُ ! ابصرتُ السماء ! وها انا انظر كلّ شيء ! »

قالت هذا وارتمت بين أذرع والديها ! فدهشوا جميعاً ، والأمر مدهش . ثمّ أفاقوا وهمّوا ليشكروا للمحسن اليهم . فاذا به قد توارى عنهم فسعوا في طلبه وعبثاً ما سعوا . فادركوا أنّ الشيخ المسكين انما هو الله او رسولٌ من عنده . فقاموا كلّهم ، وكلّهم قلوبٌ بارّة ، فارسلوا صلاة حارّة شكراً للسماء على النعمة .

وتضاعف نورُ النجمتين الصغيرتين في وجه الفتاة الصغيرة ولم تزالا تضيئان الى الآن بسرور ولطف في وجه روزي وهما تحدّقان الى السماء التي ستدعوهما عمّا قريب .

* * *

فاذا نظرتم عند المساء ، ايها القرّاء الاعزّاء ، الى القبة السماوية المرصّعة بالنجوم ، رأيتم أن جهة الشرق مُظلمةٌ لأنهُ ينقصها نيّران هما النجمتان الصغيرتان ، او عينا روزي المنيرتان